

نصوص مختارة في علم النفس

مناهج البحث في علم النفس^(١)

المنهج الدائى

يمكن للوقائع النفسية أن تجمع أولاً بواسطة المنهج الدائى * (الذى يسمى أيضاً بالمنهج الباطنى أو الاستبطانى) ، وهو ملاحظة الشخص نفسه . وما تبلغه هذه الملاحظة هو ما يعرفه الشخص مباشرة ، ويعرفه وحده على هذا النحو ، أى حالاته الشعورية ، والتأثيرات التى يحياها ، تأثيرات نفسه ، وتأثيرات الأشياء .

فإدراك * صوت أو لون هو الحصول على خبرة مباشرة ببعض الخصائص الحسية كصوت الناي ولون السماء الأزرق . والفرد لا يعرفها على هذا النحو إلا عن طريق هذه الخبرة فالملود أعمى أو أصم سيبقى أبداً على جهله بها . وكذلك الشعور بانفعال * كالخوف مثلاً . هو ، بكيفية ما ، معرفة هذا الخوف ، على أقل تقدير ، فى الصورة التى تنكشف تكشفاً مباشراً للشخص من جراء خوفه . وعند ما أتذكر ، أعلم مباشرة أننى أفكر فى ماضى الخاص ، فى هذا الحادث أو ذلك الذى وقع لى فى الماضى الذى أختبره من جديد فى بعض نواحيه اختباراً داخلياً . وفى إمكانى وحدى دون غيرى أن أدرك مباشرة ماذا يحدث فى ذهنى فى مثل هذه اللحظة . وفى هذه الأمثلة ، يكون إدراكى وانفعالى وتذكرى بمثابة حالاتى الشعورية ، أى نوع من عالم مغلق أعرفه معرفة فريدة متميزة .

(١) Pauli Guillaume ; Psychologie, pp. 4-8. Alcan, Paris 1931

بول جيوم : ولد سنة ١٨٧٨ ، استاذ علم النفس بجامعة باريس . ومن مؤلفاته : الحكاكة لدى الطفل ١٩٢٥ - ترجمة كتاب كهلر : الذكاء لدى القردة العليا ١٩٢٧ - علم النفس ١٩٣١ - تكوين العادات ١٩٣٦ - سيكولوجية الصيغة ١٩٣٧ وهو عرض واف واضح لنظرية « الجشطت » ولأهم التجارب التى قام بها علماء هذه المدرسة - علم النفس الحيوانى ١٩٤٠ - مدير مجلة علم النفس الفرنسية Journal de Psychologie ويساهم فى تحرير « السنة السيكلوجية » والمجلة الفلسفية كما أنه ساهم فى تحرير الجزء الثامن من دائرة المعارف الفرنسية الخاص بالحياة العقلية سنة ١٩٣٨ .

المنهج الموضوعي

وبدلاً من أن يلاحظ الشخص نفسه ، يمكنه أن يلاحظ غيره من الأشخاص كما يلاحظ أى موضوع من الموضوعات الأخرى . ومن هنا جاءت تسمية هذا المنهج بالمنهج الموضوعي * فالملاحظ هنا هو غير الشخص الملاحظ . وما يلاحظه هو وقائع فيزيقية . أى ، من جهة ، الموقف الفيزيقي الذي يحيط بالشخص الملاحظ ، ومن جهة أخرى تصرفه أو سلوكه إزاء هذا الموقف * وعلى خلاف الحالات الشعورية الفردية ، يمكن لأكثر من شاهد واحد أن يشاهد هذه الوقائع الفيزيقية ، كما أنه يمكن ضبط ملاحظات كل شاهد بملاحظات غيره . وفي وسع الشخص أن يدرس نفسه دراسة موضوعية جزئية بملاحظة ما يصدر عنه من حوادث فيزيقية كالكلام والحركات التي يمكن لغيره كذلك أن يدرکہا .

ولنعد الآن إلى الأمثلة السابقة . فالمقصود من دراسة الحساسية * في أى شخص آخر هو مجرد ملاحظة استجاباته * الخاصة (كالحركات والأوضاع والأفعال المعقدة المتميزة والألفاظ) عند ما يتعرض لتأثير بعض المنبهات كالإشاعات الضوئية والأمواج الصوتية ومختلف أنواع التماس الميكانيكي . وليس المقصود أن يشعر الملاحظ بما يشعر به الشخص الملاحظ أثناء هذه الظروف .

وكذلك تقصد بملاحظة انفعالات شخص آخر أن نلاحظ أنه في بعض الظروف ، كواجهته مثلاً لحيوان ضار ، يشحب وجهه وترتعد يداه وتهبط زاويتا فمه ، فيفر هارباً لكي يختبئ أو يظل واقفاً لا يتحرك ، محققاً بذهول في الشيء المرعب .

وكذلك عند ما نريد التأكد من أن شخصاً آخر يسترجع ذكرى من الذكريات ، نبحث في سلوكه الراهن عن آثار حادث وقع له في الماضي . ففي إمكان الإنسان أن يستفيد من الخبرة المكتسبة وأن يتبصر في عواقب الأمور وأن يتفادى الوقوع في نفس الأخطاء وأن يعترف بالجميل أو يحاول الانتقام لما أصابه من ذل وهوان . فقد يشحب الوجه لذكرى الخطر ويحمر لذكرى الإثم . وإن تذكر الطريق هو الاهتمام إليه بسهولة وتذكر الدرس هو تسميعه بدون خطأ إلخ وكذلك يمكن الاستدلال على النسيان بعكس تلك المظاهر السلوكية . والقيام بهذه الملاحظات على شخص آخر يؤدي إلى معرفة عملية التذكر معرفة لها أهمية كبرى من الوجهة العملية . وليس المقصود أن يشعر الملاحظ بما يشعر به الشخص الذي يتذكر .

العلاقة بين المنهجين

يبدو إذن مما سبق أنه يوجد خلاف كبير بين الموضوعات التي يتناولها كل من هذين المنهجين ، ويتوقف على ذلك اختلاف في تعريف الظاهرة السيكولوجية . فتبعاً للمنهج الذاتي تكون الظاهرة السيكولوجية الحالة الشعورية التي يحياها الشخص . في حين أنها تبعاً للمنهج الموضوعي السلوك في صلتها بالموقف كما يظهر للملاحظ الخارجي . ولكن على الرغم من اختلاف الأسلوب في معرفة الظواهر السيكولوجية ، فهناك تضامن وثيق بين الحالة الشعورية والسلوك الخارجي ؛ ولكن إلى أي حد يمكن اعتبار المنهجين مستقلين حقاً بعضهما عن بعض ؟

المنهج المشترك أو المنهج الإسقاطي

كثيراً ما يعتبر المنهج الذاتي جوهرياً ، وتعريف الواقعة السيكولوجية بإرجاعها إلى الشعور ، التعريف الصحيح دون غيره . في حين لا يعتبر المنهج الموضوعي إلا وسيلة إضافية تساعد على توسيع النتائج التي تسفر عنها الملاحظة الذاتية . وليس السلوك* في هذه الحالة سوى أمانة أو وثيقة يجب تأويلهما ، ويصبح الغرض من استخدام المنهج الموضوعي إعادة تركيب الحالات الشعورية التي يختبرها الآخرون

والواقع أننا نلاحظ في الأمثلة السابقة التي قصدنا بها مجرد وصف السلوك وصفاً موضوعياً ، أن بعض الألفاظ التي استخدمناها تتضمن تأويلات ذاتية . فعندما ندرس الحساسية عن طريق الاستجابات ، نعني بالحساسية أمراً آخر غير ما نعنيه عندما نتحدث عن حساسية آلة من آلات الوزن ، إذ أننا نفرض وجود حالة شعورية

وفي وصفنا الموضوعي للخوف هل عبارة « حيوان صار » تعبر عن مجرد خاصية فيزيقية أم عن التأثير الذي يحدثه هذا الحيوان في شعور المشاهد . وليس الهرب أو التوارى مجرد القيام ببعض حركات ، بل تفيد هذه الحركات أن الخائف يريد* الابتعاد عن عدوه والتوارى عنه . كيف إذن يمكننا الوقوف على حالات الآخرين الشعورية إذا لم نعتمد على ما أطلعنا عليه الملاحظة الذاتية . فإننا نفرض فيهم حالات داخلية مماثلة على أقل تقدير لما كنا لنشعر به لو وجدنا في نفس الموقف . وفي هذه الحالة لكنا سلكنا نفس مسلكهم . فإذا فهمنا المنهج الموضوعي بهذه الكيفية ، يصبح المنهج الذاتي أساساً له . فالمنهج الموضوعي هو بمثابة إسقاط* حياتنا الداخلية الخاصة على غيرنا من الناس . ويستند هذا الإسقاط إلى ما نلاحظه من مماثلات خارجية .

المنهج الموضوعي البحث

ولكن هل يمكن تطبيق مثل هذا المنهج الإسقاطي في جميع الحالات . فالإسقاط عملية طبيعية وصحيحة عند ما يكون الملاحظ والشخص الملاحظ جد متشابهين من حيث التركيب الجسمي والسلوك . ولكن كلما ضعفت أوجه المماثلة بين أشكال التركيب والسلوك ازدادت عملية الوقوف على حالات الآخرين الشعورية غموضاً وإشكالا . لا شك أنه يحق لنا من الوجهة الفلسفية أن نسلم بنوع من الاطراد والتواصل بين جميع الأشخاص ولكن مثل هذا الافتراض يصبح ناقصاً إذا نظرنا إليه من الوجهة العلمية . إذ أن العالم يرمى قبل كل شيء إلى أن يكون وصفه للوقائع يقينياً دقيقاً . وثمة جملة من المشكلات تستلزم منهجاً موضوعياً بحثاً . وفي هذه الحالة يقتصر على ربط الاستجابات بالمواقف التي تثيرها ، بواسطة قانون قد يصل الى درجة كبرى من اليقين والدقة ، مع الامتناع التام عن كل تأويل ذاتي

ومثل هذا الاتجاه في البحث منهجي بحث ، إذ أنه لا يتضمن أى إنكار لما يشعر به الآخرون من حالات داخلية . ولا يرجع عدم التحدث عن هذه الحالات الداخلية إلا إلى افتقارنا الى وسيلة تسمح لنا بمعرفتها . فما تقوم به في الواقع هو مواجهة المشكلة من حيث يمكن مواجهتها .

فعلم النفس الحيواني لا يستخدم سوى هذا الضرب من المنهج الموضوعي . فالمحاربة (حيوان بحري صدقي) تنقلص عندما نسقط على جسمها نقطة من الحامض . ففي وسعى أن أعرف بدقة قانون هذه الظاهرة ، لا كيفيه الحالة الشعورية التي قد تكون مصاحبة لها .

وفي كثير من مسائل علم النفس البشري يكون السلوك ، دون كيفية الحالة الذاتية ، العنصر المتين الدقيق لإقامة معلوماتنا ؛ ولنا من دراسة النماذج * الفردية دليل على ذلك . فعندما نحكم على شخص آخر أنه ذكي أو أناني أو مخلص أو متكبر أو محتال أو قاس الخ . فما نقصده خاصة هو أنه يسلك في بعض الظروف سلوكا سبق لنا مشاهدته وتعلمنا توقعه والتنبؤ به . وكل ما أصابه علم النفس الحديث من تقدم يبين لنا بجلاء مدى الخطأ الذي تقع فيه إذا اعتمدنا على ما تقدمه لنا الملاحظة الداخلية من معلومات خاصة بالإنسان البالغ المثقف سوى * للوصول إلى معرفة الطفل والإنسان البدائي والشاذ *.

وفي ضوء المنهج الموضوعي البحث ، لا يكون تأويل الملاحظات إعادة تركيب الحالة الشعورية للشخص الملاحظ ، بل إعادة تركيب مجموعة من الوقائع الموضوعية ابتداء من بعض عناصرها . . . فمعرفة الحساسية هي توقع ما تحدثه منبهات معينة من استجابات . وتأويل الشحوب كعلامة للخوف هو توقع سائر الحركات والأوضاع المميزة للخوف . وإثبات حقيقة الذكرى هو تحديد ضروب السلوك المميزة للذكرى مع مراعاة المواقف المختلفة المرتبطة بهذه الضروب السلوكية . والملاحظة الخارجية هي التي سمحت لنا ، بتتالي الحالات السابقة المتشابهة ، بإقامة هذه المجموعات من الوقائع المتضامنة . ومثل هذا المنهج عام ، مستقل عن الملاحظة الذاتية ويمكن تطبيقه على السواء في الكائنات الشبيهة بنا أو المختلفة عنا مهما كان مدى الاختلاف كبيراً .

عن جيبوم : علم النفس ص . ٤ — ٨ .

المنهج الموضوعي في علم النفس^(١)

إن تحديد موضوع أحد العلوم ومنهجه ليس بحثاً من بحوث العلم بل هو بحث من بحوث الفلسفة ، ومن اليسير أن يتحاشى المرء علاج هذه المسألة التي تتصل بفلسفة العلوم ونظرية المعرفة ورغم أن الفلسفة العامة في تعرضها لعلم النفس تواجه هذه المشكلة ، إلا أنه من الواضح أن الحلول التي تصل إليها لا تغير شيئاً لا في الوقائع ولا في القوانين التي

(١) Henri Piéron : Psychologie expérimentale, pp. 12-16. Colin, Paris 1927

مترجم هذا النص الأستاذ اسحق رمزي

هنري بيرون : ولد سنة ١٨٨١ ، أستاذ علم النفس الفسيولوجي في « السكوليج دي فرنس » مدير معمل علم النفس في جامعة باريس ، مدير معهد التوجيه المهني ، رئيس قسم العلوم الطبيعية في مدرسة الدراسات العليا بباريس .

ومن أهم مؤلفاته : كيفية إجراء التجارب في معمل علم النفس التجريبي ، بالاشتراك مع طولوز Toulouse — تطور الذائكة ، ١٩١٠ — مشكلة النوم من الوجهة الفسيولوجية ١٩١٢ — الدماغ والفكر ، ١٩٢٣ ، وله ترجمة إنجليزية — علم النفس التجريبي ١٩٢٧ ، وله ترجمة إنجليزية — النمو العقلي والذكاء ١٩٣٠ — حساسيات البشرة ١٩٣٢ — المعرفة الحسية ومشكلات الإبصار ١٩٣٦ — مدير « السنة السيكولوجية » منذ ١٩١٣ ، سكرتير عام دائرة المعارف العلمية للناسر Doin ، ساهم في تحرير « الموسوعة الفسيولوجية » للناسر Masson ، والموسوعة السيكولوجية الجديدة للناسر Alcan ، كما أنه ساهم في تحرير الجزء الثامن من دائرة المعارف الفرنسية الخاص بالحياة العقلية . ١٩٣٨ .

يؤدى إليها البحث التجريبي . غير أنه لما كان الانفصال بين الفلسفة وعلم النفس لم يتحقق بأكمله ، بل بقيت بينهما بعض الوشائج قائمة ، كان هذا مدعاة إلى عدم التصريح لأصحاب علم النفس بالتحدث عن أعمالهم قبل أن يسوغوا أولاً حق علمهم في التمتع بكيان خاص لا ينازعهم فيه منازع . ولو أن المرء رأى إلى جهود أول من وضعوا نظريات علم النفس التجريبي مثل فوندت وريبو ورأى إلى جهدهم في إثبات نطاق خاص لعلمهم ، علماً لظواهر الشعور ، أو على الأقل لظواهر ذات وجهين ، لاستطاع المرء أن يدرك ما يبرر التعرض لهذا الحديث : فالعلوم الطبيعية الأخرى تتعرض لظواهر موضوعية ، وهما نحن بصددهم علم يزعم أنه علم من هذه العلوم ، ويؤكد أنه يضع قوانين لظواهر ذاتية في صميمها الأمر الذى ينكره أوجست كومت ويجد أنه على حق في ذلك . غير أنا هنا نجد أننا في الواقع بصددهم وهم خاطيء بالغ الخطأ .

فلنر إلى الأمر عن كثب . أشاهد مصدراً مضيئاً مزوداً بستار لا ينفذ منه سوى لون واحد يسمح بالمرور لمجموعة من الموجات التى يقرب طولها من ٥٥٠ مليمكرون . فأحس بتأثير شعورى خاص ، وأقول لصاحبي الذى يستطيع أن يدون ذلك أنى قد أدركت « أخضر » ، وأقيد أنا هذه الملاحظة ، للمستقبل ، وينظر صاحبي بدوره ويعلم أنه هو أيضاً يدرك « أخضر » . ثم أشرع فى استخدام أستار أخرى ، فى ظروف أخرى ، وأواصل أنا فى تدوين الأحوال التى أبصر فيها أنا وصاحبي اللون الأخضر .

وعلى هذا المنوال أقوم بدراسة إحساس * اللون الأخضر ، الذى أعرف بواسطة الخبرة * الخاصة أنه إحساس أدركه وأشعر به . وأسلم بواسطة الماثلة ، أن لدى صاحبي مثل ذلك الإحساس ، غير أنى لا أملك أى وسيلة أستطيع أن أعرف بها ذلك أو أعرف بها على الأخضر ما إذا كان التأثير الذى يشعر به مطابقاً تماماً لما أشعر به أنا . بل كل ما أعرف هو أنه إذا ما وضع فى عين الظروف استخدم عين الألفاظ التى استخدمها واستجاب على المنوال الذى أستجيب به . لكننا قد تقع على شخص آخر ، يقول إنه يرى اللون الأخضر فى ظروف لا نراه فيها لا صاحبي ولا أنا ، وإذا بنى أوفق إلى الكشف عن نقص محقق فى إبصار ذلك الشخص للألوان .

وأعرف أنى لو كنت مصاباً بالعمى اللونى لا أحس بالألوان — ويمكن أن يلحقنى ذلك مؤقتاً إذا خطف بصرى (زغلت عيناى) ، كما يلحقنى ذلك دائماً فى الضوء الضعيف — أعرف أنى رغم ذلك أستطيع دراسة إحساس اللون الأخضر وإبصار الألوان عن طريق الاستجابة اللفظية .

وإذا أنا فقدت في وقت معين القدرة على الإحساس بالألوان سواء أدركت هذه الألوان أو تصورتها ، وفقدت في نفس الوقت القدرة على أن أستجيب بطريقة نوعية لمختلف المنبهات الضوئية ، لبقيت أعلم على الرغم من ذلك ، بفضل ما دوتته من الاستجابات اللفظية أنني كنت أدرك اللون الأخضر بتأثير بعض الموجات .

وهكذا تعرض طائفة من الدراسات السيكولوجية — رغم صلتها بظواهرات الشعور — لأشكال خاصة من النشاط والسلوك وتغيرات الاستجابة اللفظية على الأخص .

وليس من شك أن كل شيء بالنسبة لى إن هو الا تأثر أشعر به سواء كنت أبحث في الطبيعة أو الكيمياء أو علم النفس . غير أن كلمة الأخضر أو كلمة الإحساس عند غيرى ليس لها حتما عين المعنى الذاتى الذى يكون لكلمة المكعب أو لكلمة النثرة . وإنى لأستطيع بطرائق للتدريب ، تتضمن استجابات خاصة لمؤثرات ضوئية من اشعاعات مختلفة استخدمها بدلا من الاستجابات اللفظية التى تكتسب أثناء التدريب الاجتماعى ، أن أقوم بدراسة إبصار الألوان عند الحيوان . وقد يكون عند الحيوان تأثر شعورى بذلك ، غير أنى لا أستطيع الحزم بهذا على أى وجه من الوجوه ، وقد تكون تلك التأثيرات مماثلة تماماً من حيث الكيف لما أشعر به أنا من تأثيرات ، لكنه لا أهمية لذلك إطلاقاً . بل أن المهم هو أنه عند وقوع مؤثرات خاصة تقع استجابات خاصة ملائمة تظهر وتختفى في الظروف المماثلة . ومن ثم كان يكفيننا اتفاق أشكال السلوك ، دون حاجة الى التماس الاتفاق في عمليات خافية تستعصى على البحث استعصاء تاماً .

أستطيع أن أتبع في نفسى تغير حالات الشعور ، غير أنى إذا ما أردت أن أعبر عنها وأن أدونها ، كان لزاما على أن استخدم الرموز* اللفظية التى تلقيتها من المجتمع ؛ ودلالة هذه الرموز ، التى يتناولها الأفراد بعضهم عن بعض ، لا يمكن أن تقوم إلا على ظواهرات يستطيع الكافة إدراكها ، أى على ظواهرات موضوعية . فإذا كانت أم مع صغيرها وأشارت الى حيوان أو إنسان يتألم لربطت بذلك لفظ الألم بصنوف من أسرار الوجه ومن الحركات والأفعال والأوضاع والأقوال التى يدركها ابنها في نفس الوقت الذى تدركها هى فيه ، حتى اذا ما شعر الطفل يوماً بالألم عرفه بوساطة التشابه بين الاستجابات التى تصدر عنه والاستجابات التى سبق أن رآها ، أنه يستطيع استخدام لفظ الألم للتعبير عما يشعر به . أما الحالات الذاتية الخالصة ، التى لا يكون لها أى أثر معين يمكن أن يكون موضوعاً للإدراك فإن الوسائل الرمزية التى قد أستخدمها للتعبير عنها لا تصلح للاستعمال لأنه لا يكون لها دلالة تصلح للتبادل ؛ ويمكن أن نحاول إثارة هذه الحالات النفسية الدقيقة التى

تعجز الألفاظ عن التعبير عنها ، عن طريق العدوى الوجدانية ، كالتعبيرات الموسيقية مثلاً؛ غير أننا لا نستطيع أن نقيم منها علماً . ذلك لأن العلم يمثل في الواقع مجموعة من التجارب التي يمكن تبادلها ، هذا إلى أنه ، بما يتصف به من خصائص اجتماعية جوهرية ، لا يعجز فحسب عن تضمين المفرد وما لا يمكن تناقله ، بل هو لا يمكن أن يخفى بما يتمتع على التعبير عنه تعبيراً موضوعياً . وما لا يمكن أن يصبح موضوعاً للتجربة الجمعية وما لا يمكن أن يكون مصدراً للمبادلات الاجتماعية .

فليس هناك من علم إلا علم السلوك والنشاط والاستجابات الشاملة التي تصدر عن الكائن الحي من حيث هو وحدة ، وهذا هو علم النفس؛ وهو يختلف عن علم وظائف الأعضاء (الфизиولوجيا) * الذي يعرض للحركات الجزئية ولنظم الاستجابة المحدودة .

عن بيرون : علم النفس التجريبي ص ١٢ - ١٦

نقص الملاحظة الداخلية^(١)

إذا أردنا أن نقف على معنى الشخصية الحقيقية الواقعية ، لاعلى أمر مجرد نستبدله بها ، فلا ينبغي على المرء أن ينطوى على شعوره وأن يغلق عينيه وأن يلح في استجواب نفسه ؛ بل ينبغي على النقيض من ذلك أن يفتح عينيه وأن يشرع في الملاحظة . فالطفل والفلاح والعامل وأولئك الملايين من الناس الذين يذرعون الطرقات أو الحقول ، أولئك الذين لم يترام إلى أسماعهم البتة حديث عن فيخته أو مين دي بيران^(٢) . أولئك الذين لم يقرأوا شيئاً قط عن الذات * وغير الذات ، بل لم تقع أبصارهم على سطر واحد من علم النفس ، لكل واحد من أولئك جميعاً شخصية واضحة جلية يقرأها بفطرته في كل حين . ومنذ تلك الفترة التي لفتها غيابة النسيان ، تلك الفترة التي تكونت أثناءها الذات ، أي ظهرت

(١) Th. Ribot : Les maladies de la personnalité, pp. 86-90

مترجم هذا النص الأستاذ اسحق رمزي .

ريبو : ١٨٣٩ - ١٩١٦ ، أول من وجه علم النفس في فرنسا توجيهاً علمياً تجريبياً وطبق بنجاح المنهج الباثولوجي في الدراسات السيكولوجية (تحليل سيكولوجي للأمراض العقلية والنفسية) ، مؤسس المجلة الفلسفية سنة ١٨٧٦ . وله عدة مؤلفات أهمها : الوراثة السيكولوجية ، علم النفس المعاصر في إنجلترا وألمانيا ، أمراض الذاكرة والإرادة والشخصية ، الانتباه ، العواطف ، تطور المعاني السلبية ، الخيلة المبدعة ، منطق العواطف ، الحياة اللاشعورية والحركات .

(٢) فيحه Fichte فيلسوف ألماني مثالي ١٧٦٢ - ١٨١٤ . مين دي بيران Maine de Biran

فيلسوف فرنسي برع في الملاحظة الذاتية ١٨٦٦ - ١٨٢٤ .

مجموعة متناسقة بين ثنايا الأحداث التي تهاجمها وتتنازعها من كل صوب ، تناسك هذه المجموعة دون انقطاع مع عملها أبداً على التحول والتغير . وهي تتكون إلى حد كبير ، من الحالات والأفعال التي تكاد أن تكون آلية * والتي تقيم عند كل منا شعوره ببدنه وبوتيرة الحياة ، وتقوم عماداً لكل ما عداها ، لكنها سرعان ما تشعر بأى تغير يلحقها حتى لو كان جزئياً فصيراً . وهي تتكون إلى حد كبير أيضاً ، من مجموعة من الإحساسات والصور والمعاني التي تمثل الوسط المألوف الذي يعيش فيه المرء ويتحرك ، إلى جانب الذكريات التي تتصل به . ويمثل هذا كله حالات منظمة ، وثيقة الصلة بعضها ببعض ، ويشير بعضها بعضاً ، وتكون وحدة متماسكة . ونحن في هذا نقرر الأمر كما هو في الواقع دون أن نستقصي السبب . وكل ما هو جديد غير مألوف سواء أكان تغيراً في حالة البدن أم في الوسط الذي يوجده يقتبس دون تردد أو يصنف على الفور باعتباره جزءاً من الشخصية أو باعتباره أمراً خارجاً عنها . ولا تقع هذه العملية في كل لحظة بوساطة حكم واضح مميز بل بوساطة منطق لا شعورى أعمق كثيراً من الآخر . فإذا كان من اللازم أن أعبر بلفظ عن هذا الوجه الطبيعي للتقائى الحقيقى من وجوه الشخصية لأطلقت عليه لفظ « العادة » . ولا يمكن أن يكون غير ذلك لأنه يصدر عن كائن حى . فإذا أراد القارىء بدلا من أن يلاحظ نفسه أن يسير وفق المنهج الموضوعى أى أن يلاحظ وأن يفسر على ضوء ما يشعر به هو ، حاله غيره ممن لم يفكروا قط في شخصياتهم (وهم الكثرة العظمى من بنى البشر) لرأى أن رأى السالف صحيح وأن الشخصية الحقيقية تتضح لا بالتفكير بل بالأفعال .

فلنر الآن إلى الشخصية الزائفة أو الصناعية . ذلك أن عالم النفس إذا حاول ، كما يقول ، أن يدرك نفسه بوساطة الملاحظة الداخلية ، كان في هذا يحاول المحال . لأنه إذا ما بدأ في هذه المهمة فإما أن يقتصر على الحاضر فلا يكاد يتقدم خطوة واحدة وإما أن يمد تفكيره نحو الماضى فيؤكد ثبات نفسه منذ سنة بل منذ عشر سنين . فلا يصل بهذا إلا إلى إجهاد نفسه في اصطناع أسلوب العلماء في التعبير عما يعرفه أى فلاح قدر معرفته بإياه . فعالم النفس باصطناعه الملاحظة الداخلية لا يستطيع أن يقف إلا على ظاهرات عابرة . ولست أعرف أحداً استطاع أن يرد على الآراء الصائبة التى أدلى بها هيوم حين قال : « إننى من ناحيتى إذا ما تغلغلت فى أعماق ما أسميه بالذات ، اصطدمت أبداً بهذا المدرك (١) »

الجزئى أو ذاك ، بالبرودة أو الحرارة أو الضوء أو الظل ، أو الحب أو الكراهية ، أو اللذة أو الألم . ولست أستطيع البتة أن أفاجئ ذاتى خالصة من أى مدرك . ولست ألاحظ أبداً إلا المدرك .. فإذا خيل لأحد ، بعد التفكير العميق الخالص من الأحكام السابقة ، أن لديه فكرة أخرى عن ذاته ، لم يكن بد من أن أعلن عجزى عن مواصلة النقاش معه طويلاً . وكل ما يمكن أن أوافقه عليه هو أنه قد يكون مصيباً قدر ما أنا مصيب وأن طبائعا في هذه الناحية تختلف اختلافاً جوهرياً . ولعله يدرك شيئاً بسيطاً دائماً يسميه « ذاتاً » . أما أنا فموقن من ناحيتى أن ليس لدى ذات لها هذا الكيان « ولقد قيل منذ أيام هيوم «إننا بوساطة الجهد والمقاومة نشعر أن كلاً منا علة» . وليكن هذا . فكل المدارس تقريباً تسلم بأن الذات تتميز على هذا المنوال عن غير الذات ؛ غير أن الشعور بالجهد ليس حالة بسيطة كغيرها من حالات الشعور أى شعوراً بالجهد العضلى الخالص الذى يؤدي إلى أى فعل من الأفعال . فإذا أردنا بوساطة التحليل أن ندرك كلاً مؤلفاً مثل الشخصية أو أن نلجأ إلى الحدس ، الذى لا يكاد يستغرق بضعة ثوان ، لاستخلاص مركب كالذات لأثرنا بهذا مسألة متناقضة العناصر . هذا الى أن علماء النفس يسيرون فى الواقع وفق طريقة تخالف تلك . فقد اعتبروا حالات الشعور أعراضاً واعتبروا الرباط الذى يمسك بينها أساساً . وهذه الأرضية الخافية بمختلف الأسماء التى تطلق عليها مثل الوحدة والهوية والتواصل هى الذات الحقيقية . ومن الواضح رغم هذا أننا لا نظفر عند ذلك إلا بأمر مجرد أو فى عبارة أدق برسم تخطيطى . ذلك لأننا نكون قد استبدلنا بالشخصية الحقيقية فكرة عن الشخصية . وهذا شئ غير ما نبحث عنه تماماً . لأن فكرة الشخصية تشبه كل الكليات الأخرى التى نصل إليها (مثل الحساسية والإرادة الخ) . غير أنها لا تشبه الشخصية الحقيقية إلا بقدر ما يشبه رسم المدينة المدنية نفسها ، وكما أنه فى حالات انحراف الشخصية تقوم فكرة واحدة مقام الشئ المركب فتنشأ الشخصية الوهمية المنقوصة . فإن عالم النفس يتخذ تخطيط الشخصية بدلاً من الشخصية الواقعية ثم يشرع فى الاستدلال والاستقراء والقياس والقطع فى هذا الإطار الحاوى الفارغ ومن الواضح أن هذا التقريب لا يتحقق الا بتغيير ما يستلزم التغيير وبكثير من القيود التى يستطيع أن يكشف عنها القارىء بنفسه .

والخلاصة إن تفكير المرء فى « ذاته » يدفعه الى اتخاذ موقف صناعى يغير من هذه الذات . ويدفعه الى اتخاذ فكرة مجردة بدلاً من الحقيقة الواقعة . فالذات الحقيقية هى الذات التى تحس وتفكر وتعمل دون أن تشاهد نفسها لأنها بطبيعتها وتعريفها « ذات » ولا يمكن أن تصير موضوعاً إلا إذا أقصصها الاختزال وطابقت طرائق النظر العقلى الذى يغير فيها ويقطع منها .